التعليم وترسيخ الاحتلال الإنجليزي لمصر

١٨٨٢-١٩٥٢م

عماد الدين عشماوي

مقدمة

كان القرنان الثامن والتاسع عشر، هما ذروة زمن الاستعمار الغربي الوحشي، وفي القلب منه إنجلترا وفرنسا؛ بعد أن ولى زمان الهولنديين والإسبان والبرتغاليين. وقد طالت نار ذلك الاستعمار كل مجتمعات العالم القديم والجديد، فجاست كل ديار أبناء آدم في إفريقيا وآسيا والأمريكيتين: قتلاً، وسبياً، ونهباً للثروات، وتبويراً للعقول، وتسفيهاً للتاريخ والقيم والمعتقدات، وتربية للأعوان "حزبهم المخرب" داخل تلك المجتمعات، الذين كانوا خدماً وترجمانات ووسطاء يحكم الاستعمار من خلالهم تلك الشعوب.

وقد انطلق هذا الاحتلال الغربي لمجتمعاتنا العربية الإسلامية، من خبرة عقود طويلة، في دراستها، من خلال: المستشرقين، والتجار، ورجال الدين من المبشرين، فتكونت لدى أوروبا الصاعدة بقوة في القرن التاسع عشر قاعدة معلومات هامة وفارقة في علاقتها مع مجتمعاتنا، أنتجت فرصة سانحة للانقضاض على الإمبراطورية العثمانية الذاهبة إلى الأفول، وفي القلب منها مصر.

فبدعوى إفلاس مصر، والدفاع عن الخديوي الذي ثار عليه الشعب، وتخليص المصريين من حكم العسكر المستبدين، والعمل على ترقية الشعب المصري، وغيرها من الأكاذيب، دخل الإنجليز مصر بعد هزيمة جيشها في التل الكبير عام ١٨٨١م، ليتحقق لهم جزء من الحلم الامبراطوري؛ لتأمين طرق الامبراطورية إلى الهند، والسيطرة على أسلاب الدولة العثمانية عندما يحين وقت تفكيكها.

وقد كان لهذا الاستعمار أدواته الكثيرة والمتعددة لترسيخ وجوده داخل مصر، ومن أهمها: التعليم، الذي يعد أهم مرتكزات السيطرة الاستعمارية البريطانية في مصر طوال ثلاثة وسبعين عاماً قضاها الانجليز يحتلون مصر، وينهبون خيراتها، ويوسعون مجالات نفوذهم في عالمنا العربي، ويمهدون لزراعة دولة الصهاينة من اليهود في بلداننا.

فالتعليم، هو أساس رقى الشعوب، وهو أساس تدميرها أيضاً. ولذلك عمل الاحتلال الإنجليزي؛ كما كل احتلال عرفته مجتمعاتنا المعاصرة، بشكل رئيسي على تدمير قوى الشعب المصري المعنوية، من خلال حرصه الشديد على منع كل مصادر الضوء والنماء لبذوره وجذوره المعنوية والعقلية، من خلال تضييق منافذ التعليم، وبث مناهج وأساليب تعليمية تسطح العقل وتربي على الطاعة الخنوع، وتفقد المصريين هويتهم الاعتقادية والثقافية، لتنتج ثماراً مرة أو فاسدة من المصريين، من الذين كان جل همهم الوظيفة وضمان المعيشة، وممن لا وجهة لهم سوى أنفسهم وأهليهم الأقربين، فكانوا هم جنوده الحقيقيين الذين حكم بهم البلاد ما يقارب من ثلاثة أرباع قرن.

لقد رحل الاستعمار ولم يرحل، وهزم في معارك الجيوش لكنه لم يهزم في معارك العقول. والتعليم خير شاهد على ذلك. ولهذا تعد قصة الاستعمار الإنجليزي في مصر، أكبر دليل على أثر التعليم كأداة رئيسية من أدوات الاستعمار وترسيخه. فقد رحل الإنجليز عن مصر بجيوشهم، لكن لم ترحل مناهجهم، ولا توجهاتهم من عقول الكثير من باحثينا والمسئولين عن التعليم في بلادنا حتى اليوم.

وفي هذه الدراسة الموجزة، نحاول دراسة لعملية الاستعمار الإنجليزي لمصر، ومناهج إدارته الاستعمارية، وكيف تعاملت مع التعليم، باعتباره مجموعة من الاستراتيجيات والتقنيات المؤدية لترسيخ أقدامه في مصر، وكيف نجحت في ذلك، فكان التعليم الركيزة الأساسية لإسكات مصر طيلة ربع قرن، حتى بدأت محاولات الإفلات منه بعد تحريرها في منتصف القرن الماضي.

نهضة تعليمية موءودة: التعليم قبل الاحتلال البريطاني

بعد أن بدأت مصر مع محمد علي نهضة تعليمية واعدة، سرعان ما دخلت في عهد كل من الخديوي عباس الأول وسعيد، في فترة سوداء من تاريخ التعليم، فقد نشطت سياسة إغلاق المدارس، حتى أصبح ديوان المدارس لا يشرف إلا على مدرستين فقط هما: "المهندس خانة، والطب"، وما لبث أن ألغى هذا الديوان في عام ١٨٥٤.

ثم جاء عصر إسماعيل، ليعيد لمصر نهضتها التعليمية، وبدأت أفكار النهوض بالتعليم تتبلور في لوائح وهيئات، فاهتم بالكتاتيب وأدخلها في نطاق النظام التعليمي، وأنشأ مجلس المعارف للمشورة في

أمور التعليم. ومع تولى علي مبارك نظارة المعارف، عمل على إتاحة التعليم لكل من يرغب دون تمييز، كما وضع أول تخطيط علمي لمشروع التعليم القومي فيما سمي بلائحة رجب بهدف تعميم التعليم العام، لكن تدهور الاقتصاد أوقف سير تلك النهضة التعليمية[١].

وفي عهد توفيق، شكلت الحكومة لجنة لتنظيم التعليم أطلق عليها "مجلس قومسيون المعارف"، عام ١٨٨٠ م[٢]، من أجل نشر وتعميم التعليم في جميع أنحاء البلاد، وتحسين مستوي المدارس الابتدائية والإعدادية لضمان مرشحين أفضل لدخول المدارس المتخصصة. واقترح، كذلك، تأسيس مدارس ابتدائية درجه ثالثة في كل قرية مهمة، ومدرسه ابتدائية درجة ثانية في المدن الصغيرة جدًا، ومدرسة ابتدائية درجة أولي في عواصم المحافظات، علي أن يتم تمويل هذا المشروع من الاهالي من خلال العُمد والمجالس المحلية[٣].وبدأت الحكومة بالتعاون مع مجلس شورى النواب في تنفيذ مقترحات القومسيون في زمن الثورة العرابية القصير جداً، لكن الاحتلال البريطاني دهم البلاد، فأوقف النهضة التعليمية، ووضع للتعليم سياسة جديدة قائمة على التضييق والقصد في الإنفاق[٤].

ما الذي فعله الاحتلال في التعليم؟

وعد اللورد دوفرين في تقريره المشهور، عندما دخل الإنجليز مصر، بأن تكون ترقية التعليم من أهم ما سيحرص عليه الحكام الجدد، حتى لا تكون صيحة مصر للمصريين، صيحة جوفاء[٥]. وتم تعيين اللورد كرومر (سير إفلين بارينج) أول معتمد بريطاني في مصر في ١١ سبتمبر ١٨٨٣، ليقوم بتنفيذ توصيات تقرير دوفرين، ومن ضمنها الارتقاء بالتعليم، حتى يستطيع المصريون حكم أنفسهم بأنفسهم. ولكن ما أعظم الخلف بين القول والعمل في كل معاملة الإنجليز للمصريين، وإنه لأعظم في دائرة التعليم منه في أية دائرة أخرى[٦]. وصار التعليم، هو المدخل للسيطرة على الفرد وعلى الأمة بعد القضاء على الثورة، من خلال تغيير مناهج التعليم، وتعيين المدرسين الإنجليز في جميع مراحل

---

[١] سلامة، جرجس. أثر الاحتلال البريطاني في التعليم المصري، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، م١٩٦٦، ص٢١.
٢سلامة، جرجس، أثر الاحتلال البريطاني في التعليم المصري، المرجع السابق، ص٢
٣حسن، عبدالغني حسن.عبد الله فكري، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، سلسلة أعلام العرب، ط١، ١٩٦٥م، ص٥٩ .
٤ عبد الكريم، أحمد عزت. دراسات في تاريخ العرب الحديث، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ط١، ٢٠١٦م، ص٢٧٧.
[٥] روشتين، تيودور. تاريخ المسألة المصرية، ترجمة عبد الحميد العبادي ومحمد بدران، بيروت: دار الوحدة، ط٢، ص٢١٩.
٦ روشتين، تيودور. تاريخ المسألة المصرية، المرجع السابق، ص٢١٩

التعليم، وقتل اللغة العربية وإحلال الإنجليزية مكانها، وإفقار معنويات أبناء وناشئة الشعب عبر إبعاد التاريخ والدين والأخلاق من مناهج الدراسة.

فقد ألغيت وزارة المعارف العمومية، وتحولت إلى إدارة بوزارة الداخلية، ثم أعيدت وعهد بإدارتها إلى وزير الأشغال العامة، ولم يتأكد دورها إلا عندما تولاها سعد باشا، عام ١٩٠٦[٧]. وصارت المدرسة في مصر طيلة عهد الاحتلال، خادمة حقيرة مهينة لا تصلح لشيء سوى القيام بشؤون مطبخ الاحتلال[٨].

وقد ارتكزت السياسة التعليمية البريطانية في مصر على أسس كان من أهمها:

أولاً: نجلزة الإدارة المصرية.

ثانياً: التقتير في تعليم المصريين.

ثالثاً: قصر الغرض من التعليم على الاعداد للوظائف.

رابعاً: نشر الثقافة الإنجليزية في مصر.

خامساً: تشكيل المناهج التعليمية لتلائم أغراض الاحتلال التعليمية

كيف كان التعليم أداة لترسيخ الاحتلال؟

١ – إدارة التعليم: الإشراف والتفتيش والتدريس

كانت سياسة الاحتلال البريطاني، تستهدف الإبقاء على مستوى التعليم العام في مصر في أدنى صورة[٩]. وقد حرص اللورد كرومر، المعتمد البريطاني، على عمل كل ما من شأنه إضعاف التعليم المصري. ولهذا كانت نظارة المعارف، هي أكبر النظارات المصرية التي كانت تستخدم الموظفين

---

٧ عبد الملك، أنور.نهضة مصر، ترجمة حمادة إبراهيم ووجيه عبد المسيح، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ط١، ٢٠١١م، ص٣٧٩.

٨ روثستين، تيودور.تاريخ المسألة المصرية، مرجع سابق، ص٢٢٣.

٩ شميدت، آرثر جولد، وآخرون(تحرير).رؤية جديدة لمصر، ترجمة عايدة الباجوري، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٣م، ص٣٠٧.

البريطانيين[١٠]، حتى يضمن أن يتشكل نمط المعارف والتعليم المصري بنمط وطبيعة السلطة المحتلة[١١]. بل وعارض في إنشاء الجامعة المصرية، حيث أنها لا تتفق مع سياسته، في أن يكون الغرض من التعليم في مصر هو تخريج موظفين للحكومة قادرين على القيام بالأعمال التي تطلب منهم[١٢].

ولهذا اختار كرومر، دانلوب[١٣] في ١٧ مارس١٨٩٧م، والذي ارتاح له، رغم يقينه من قدراته المحدودة، وذلك لحرصه على الالتزام بما يطلب منه، وقدرته على تحمل النقد الشديد الذي يتعرض له، باعتباره أنسب من يتولى تنفيذ سياسته التعليمية، وليضع للأمة نظام التعليم المدمر الذي لا نزال نسير عليه، مع الأسف، إلى يومنا هذا[١٤].

وقد حرص دانلوب، على تنفيذ كل ما رسمته السياسة الاحتلالية للتعليم، وصال وجال وأصبح صاحب الكلمة العليا في كل صغيرة وكبيرة قبل نظارة سعد. فبسط نفوذه على الموظفين، وكان كل همه موجهاً نحو نظام سير التلاميذ، وإلى نظافة الأدوات في المكاتب، أو على الجدران، وإلى نظافة الأماكن لا نظافة التلاميذ أنفسهم، وكان لا يعبأ أن يتكلم مع الناظر بمنتهى القسوة، وكان لا يستنكف أحياناً من استعمال ألفاظ غير لائقة، واتخذ من قانون نظام المدارس سلاحًا لخنق الشعور بالحرية عند أحرار الطلاب والنابهين منهم[١٥].

كما عمل، على أن تنشأ أجيال متعاقبة من "تلاميذ المدارس" في البلاد، يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالاحتلال، عن طريق تفريغهم تفريغاً كاملاً من ماضيهم كله، مع هتك أكثر العلائق التي تربطهم بهذا الماضي اجتماعياً وثقافياً ولغوياً، ومع ملء هذا الفراغ بالعلوم والآداب والفنون–ولكنها فنونهم هم، وآدابهم هم، وتاريخهم هم، ولغاتهم هم، أعني الغزاة[١٦].

---

[١٠] عبد الباقي، عبير حسن.الوجود البريطاني في الإدارة المصرية(١٩٢٢-١٩٥٦)، القاهر: المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٩م، ص٣٨

[١١] ميتشل، تيموثي.استعمار مصر، ترجمة بشير السباعي، وأحمد حسان، القاهرة:مدارات للأبحاث، ط٣، ٢٠١٤م، ص٩.

[١٢] عبد الباقي، عبير حسن.الوجود البريطاني في الإدارة المصرية ، ص٥٣.

[١٣] عين "دوجلاس دانلوب" عين سكرتيرًا عموميًا للمعارف في٨ مارس سنة ١٨٩٧ ثم مستشارًا في ٢٤ مارس سنة ١٩٠٦، وقد كان في أول أمره قبل ميشرًا عمل في وظيفة مدرس للغة الإنجليزية والخط الإفرنجي في مدرسة رأس التين الثانوية ثم لفت نظر "كرومر" فدفعه إلى العمل في نظارة المعارف فما زال يترقى بها حتى أصبح مسيطرًا سيطرة تامة على شئون التربية والتعليم.

[١٤] أوين، روجر.اللورد كرومر، ترجمة رءوف عباس، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط٢٠٠٥،١م، ص٤٢١.

[١٥] سلامة، جرجس، أثر الاحتلال البريطاني، مرجع سابق، ص ٣٥٧ ، نقلا عن عبد الحميد مطر: التعليم والمتعطلون في مصر.

[١٦] شاكر، محمود محمد.رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، القاهرة:دار الهلال، دون رقم طبعة، ٢٠١٢م، ص ٢٢٩-٢٣٠.

وقد نجح في إنضاب نمو المصريين الفكري، بهدف تأخير وصولهم إلى حكم أنفسهم بأنفسهم، بالإضافة إلى القضاء على تبقى من تنظيمات تربوية من عهد محمد علي[١٧] .وليس هذا فحسب، لكنه أبطل عديدًا من الكتب المقررة، من مؤلفات "عبد العزيز جاويش" و"علي مبارك" و"عبد الله فكري"، لأنها تتحدث عن القيم العربية الإسلامية، متعللاً بأن هذه الكتب غير موافية لحاجات التعليم، وأوعز إلى بعض المدرسين الموالين له بأن يضعوا كتبًا بديلة لها تضم بعض خرافات لافونتين وفي عبارة سقيمة وأسلوب نازل"[١٨].

كما أنه في سبيل إحكام رقابته على المدارس العالية وأنجلزتها، طلب من المسيو لامبير ناظر مدرسة الحقوق، أن يعارض في كافة ترشيحات المصريين لمناصب أساتذة القانون، وأن يطعن في كفاءتهم[١٩].

وعموماً، يمكن القول، أنه خلال الفترة التي قضاها "دانلوب" في وزارة المعارف والتي امتدت إلى عام ١٩٢٠ م، ثم من تبعه من الإنجليز، مضت خطة التغريب الكاملة للتعليم والتضييق من منافذه، باعتبار المدارس هي نقطة الدائرة التي تدور حولها مساعي المضللين السياسيين، كما قال يوماً السير ألدن غورست[٢٠].

٢-مسألة المفتشين والمعلمين

كانت خطة دنلوب، تقوم على تعيين مفتشين ونظار ومدرسين يدينون له بالولاء سواء من الإنجليز أو المصريين. ونجح في تكوين بطانة من الإنجليز والمصريين، يسبحون بحمده وينفذون جميع أوامره وينتهون عن سائر نواهيه، ويسيرون وزارة المعارف ومدارسها بحسب إشارته، ولم يكن هؤلاء المفتشون من طراز ممتاز في العلم أو في الكفاية. وحسب الواحد منهم جنسيته البريطانية ليكون صالحاً لكل شيء، قديراً على كل شيء[٢١]. فالأساتذة لم يكن يشترط فيهم شيء، بل تكفي الجنسية

---

[١٧] عبد الملك، أنور.نهضة مصر، مرجع سابق، ص٣٩١-٣٩٣.
[١٨] الجندي، أنور.عبد العزيز جاويش، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، ط١، ١٩٦٥م،
[١٩] سلامة، جرجس، أثر الاحتلال البريطاني، مرجع سابق، ص ٧٤.
[٢٠] سلامة، جرجس، أثر الاحتلال البريطاني، مرجع سابق، ص٣٨.
[٢١] هيكل، محمد حسين. مذكرات محمد حسين هيكل، ، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط٢، ٢٠١٠م، ص٢١.

الإنكليزية لأن يكون المرء أستاذاً في المدارس الثانوية، وهي وبعض الشهادات من أي نوع أو في أي علم، قد تكفي لأن يكون الشاب أستاذاً في مدارسنا العليا[٢٢].

وقد قام هؤلاء وأضرابهم من المصريين باضطهاد كل طالب أو تلميذ يظهر عاطفة أو ميلاً نحو الاجتماع أو تأليف القلوب أو النداء باسم الوطن، من خلال نظام فظيع من التجسس في المدارس وصار نجباء الطلاب يطردون ويطاردون ويحرمون من دخول الامتحانات العامة ليكونوا مثالاً لغيرهم وليكون في عاقبتهم موعظة وعبرة!. ويذلونهم ويعلموهم الصغار وهم في ريعان الفتوة وفي سن الحماسة الحقة، فيطفئون جذوتها بالتهديد والوعيد والاحتقار، فقد وصفوهم في مكاتبهم بأنهم أمة نصف متحضرة، وداسوا كل عاطفة وطنية[٢٣].

كذلك كل أستاذ مصري، كان لا يباح له أن يذكر عن مصر وتاريخها ومجدها شيئاً، ولا يباح له أن يقرأ جريدة أو يصرح لطالب بقراءة جريدة، وتاريخ مصر والإسلام نفسه كان يدرس باللغة الإنجليزية في بضع صفحات أو لها "إن مصر لم تحكم نفسها بنفسها أبداً"، وآخرها "وقد هزم الجيش المصري في التل الكبير وذبح الجنود المصريون في ليلة[٢٤].كما تحمل هؤلاء الطلبة المصريون إمارة المفتشين الأجانب، وشهدوا ارتجاف النظار والأساتذة عند حضورهم[٢٥]. وليس من شك في أن أكبر آفات التعليم في مصر اسناد وظائف التدريس والتفتيش والنظارة إلى الإنجليز دون المصريين[٢٦].

وكان عدد الموظفين البريطانيين في وزارة المعارف، يزيد على ثلث العدد الكلي للموظفين البريطانيين في الخدمة المصرية[٢٧]. فقد حشد دنلوب، جيشاً من الشباب الإنجليز المتخرجين حديثاً من أكسفورد وكمبردج بدرجة بكالوريوس آداب، يعينهم أساتذة للمدارس الثانوية، ومعظمهم يدرسون علوماً غير التي تخصصوا فيهاّ! وغايتهم من ذلك وضع كل شيء في أيدي غير الأكفاء حتى تأتي النتائج

---

[٢٢] السيد، أحمد لطفي. صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر، القاهرة: لهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠٠٨م، ص٢٩.

[٢٣] جمعة، محمد لطفي. شاهد على العصر، القاهرة:الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠٠٠م، ص٧٧.

[٢٤] جمعة، محمد لطفي. شاهد على العصر، مرجع سابق، ص٧٧

[25] المرجع السابق، ص٦٣.

[٢٦] روشتين، تيودور. تاريخ المسألة المصرية، مرجع سابق، ص٢٢٣.

[٢٧] عبد الباقي، عبير حسن.الوجود البريطاني في الإدارة المصرية، مرجع السابق، ص٢٣٠.

معكوسة، وقد أثمرت هذه الغاية فكان معظم الذين تخرجوا في ذلك العهد جهالاً ومعدومي الكفاية والثقافة[٢٨].

ويذكر محمد لطفي جمعة، أن أعظم ضرر يلحق بالتلاميذ لا يرجع إلى استعدادهم الفطري، ولكن يرجع إلى سوء اختيار الأساتذة وسوء طرق التعليم، فقد كان معظم الأساتذة في تلك المدرسة الابتدائية(مدرسة الأقباط بطنطا) جماعة من أنصاف الجهال الذين لم ينالوا إجازة في علم من العلوم واشتغلوا بتلك المهنة اضطراراً وفراراً من الفاقة[٢٩]. فقد ترك معلمو الكتاتيب دون أدنى عناية منذ بداية الاحتلال حتى عام ١٨٩٨، وتدهورت مدرسة المعلمين السلطانية، وعومل المدرسون الوطنيون معاملة سيئة من الناحية الأدبية والمادية على السواء، وزادت نسبة غير المدربين وغير المؤهلين منهم إلى حد كبير، فقد كانت نسبة غير المدربين بالتعليم الابتدائي ٥٨% عام ١٩٠٢ وزادت هذه النسبة حتى بلغت ٦٥% عام ١٩٠٣[٣٠].

وحتى بعد تصريح الاستقلال، في عام ١٩٢٢م، كانت وزارة المعارف تعد من أوضح الأمثلة للنفوذ البريطاني، إذ كان الموظفون البريطانيون فيها يزيدون تمسكاً بسلطتهم ويسعون بكل جهودهم في توسيع دائرة هذه السلطة، بل الأكثر من ذلك أنهم كانوا يعمدون إلى مناورات شأنها إبعاد الوطنيين عن المناصب التي يستحقونها، لذا لم يكن الغريب أن تكون الغالبية الساحقة للقابضين على زمام التعليم من البريطانيين. فقد كان التعليم تحت إشراف المستر ستيوارت والابتدائي تحت إشراف المستر دانييل، وتعليم البنات تحت إشراف المستر روبنسن.فقد حصرت سلطات الاحتلال، أمور التعليم في أيدي البريطانيين أو المصريين المؤمنين بالخضوع لهم. فقد كان لرجال الاحتلال خطة عامة، لم يحيدوا عنها نفذوها في التعليم بالعمل على عدم انتشاره أو ترقيته، وسبيلهم إلى ذلك كان سهلاً فإن خزانة البلاد كانت في أيديهم فقبضوا أيديهم عن إمداد المعارف بالمال[٣١].

---

[٢٨] جمعة، محمد لطفي. شاهد على العصر، مرجع سابق، ص٧٦

[٢٩] المرجع السابق، ص٦٠.

[٣٠] سلامة، جرجس، أثر الاحتلال البريطاني، مرجع سابق، ص٧.

[٣١] عبد الباقي، عبير حسن. الوجود البريطاني في الإدارة المصرية، مرجع سابق، ص١٢٠-١٢١.

والجدير بالذكر أن وزارة المعارف، بعد تصريح الاستقلال، كانت تصر على أن تجعل مديرات مدارس البنات من البريطانيات، فقد تم تعيين ناظرة بريطانية للمدرسة السنية متجاهلة بذلك أن هؤلاء المديرات قبل كل شيء من بريطانيا، وبالتالي فهن كن يعلمن في السر والعلاية على أن يصبغن من هن تحت إشرافهم بالصبغة البريطانية، أن يهيئن من حولهم لاعتبار المدنية البريطانية خير المدنيات، والاعتماد على الإرشاد البريطاني باعتباره خير وسيلة لبلوغ أعلى درجات الكمال الإنساني[٣٢].

وقد استبقت وزارة المعارف الغالبية العظمى من فريق العمل البريطاني[٣٣]. فقد كان في مصر (في الفترة ١٩٣٦-١٩٤٥) ما يقرب من ثلاثمائة من رجال التعليم البريطانيين، ما بين مفتشين ومدرسين، وأساتذة في الجامعات المصرية، ومفتشات، مدرسات، وناظرات لمدارس البنات ومعهد تربية البنات، هؤلاء البريطانيون كانوا الركيزة الأساسية في تنفيذ سياسة التعليم في مصر. وقد كانت سياسة التعليم بشكل عام تحت سيطرتهم مما كان له آثار سلبية كثيرة، منها أن التعليم الإلزامي كان بطيئاً كل البطء بحيث أن عدد الذين جرى عليهم الإلزام في عام ١٩٣٨ ربع الأولاد والبنات الذين يقضي قانون الإلزام بتعليمهم...وكانت برامج ومناهج المدارس المصرية في نفس العام غير صالحة لتخريج غير الموظفين، كما خلت المناهج من المواد التي تنشر الثقافة وترفع المستوى العلمي لعدم وجود المدرس الصالح لتدريس هذه المواد[٣٤]. كما كانت وزارة المعارف أكثر الوزارات حرصا على تعيين البريطانيين بدعوى الحاجة إلى كفاءتهم وخبرتهم، في تلك الفترة التالية للحرب ١٩٤٥-١٩٥١[٣٥].

---

[٣٢] المرجع السابق، ص١٢٢.
[٣٣] المرجع السابق، ص ١٠٤.
[٣٤] المرجع السابق، ص٢٠٦-٢٠٧.
[٣٥] المرجع السابق، ص٢٤١-٢٤٤.

٣-المناهج التعليمية

كانت المناهج التي تدرس للطلاب، تخدم أغراض الاحتلال، فقد انفرد الاحتلال بتشكيل المناهج المتنوعة لمراحل التعليم المختلفة، لكي تتمشى مع أغراضه، وسار في سياسته نحو عدم النهوض المدارس بمختلف مستوياتها، وعدم تطوير مناهجها[٣٦].

وأصبح مقرر التاريخ في الصف الرابع الثانوي وهو الصف النهائي، خاليا تماماً من تاريخ مصر وتاريخ العالم الشرقي والإسلامي. كذلك كانت الحال بالنسبة للأدب العربي، الذي لم يدرج في المقررات[٣٧].

فلو أخذنا منهج التاريخ، مثلاً، الذي كان يدرس للسنة الثالثة الأدبية بالمدارس الثانوية، نجد أنه في عام ١٩٠٥ كان كما يلي:

١- إحياء العلوم بأوروبا

٢- اتساع ممالك الأمم الغربية امتدادها

٣- أشهر حوادث القرنين السابع عشر والثامن عشر في فرنسا[٣٨].

فقد كانت غاية المناهج" الشروع في قتل اللغة العربية والقضاء على التاريخ القومي وتعويد التلاميذ على العبودية للإنجليز من النظار والأساتذة وتعليمهم الخضوع من سن الرابعة عشرة إلى العشرين. ولم يكن في العلوم المدرسية شيء جدي يفاد، فبرامجها محدودة ومناهجها مقصورة على القشور، والأخلاق فيها لا تقوم والدين فيها لا يعلم، والتلاميذ متروكون لأهليهم واجتهادهم، وغاية الغايات حفظ النظام بين جدرانها وأداء الامتحانات بما يشرف المدرسة[٣٩].

---

[٣٦] سلامة، جرجس، أثر الاحتلال البريطاني، مرجع سابق، ص٣٠٣.
[٣٧] عبد الملك، أنور. نهضة مصر، مرجع سابق، ص ٣٨٩-٣٩٠.
[٣٨] سلامة، جرجس، أثر الاحتلال البريطاني، مرجع سابق، ص ٢٨٨-٣٠٣.
[٣٩] جمعة، محمد لطفي. شاهد على العصر، مرجع سابق، ص٦٥.

فيما بين سنوات ١٩١٩ و١٩٥٢ تعرضت المناهج الدراسية المصرية إلى التعديل عدة مرات نتيجة لما أدخل عليها تدريجيا وبصورة متزايدة من مفاهيم وطنية متعمدة...فقد كانت المناهج في المدارس الابتدائية في عام ١٩٢٤ تكاد تتطابق تماما مع مناهج ١٩٢١ والتي كانت مبنية على توجهات السنوات من ١٩٠٧ إلى ١٩١٣.ومن المثير للانتباه أن المقررات لم تكن تتضمن مواد التربية الوطنية والأخلاق في حين كان مقرر اللغة العربية بعيدا عن السياسة. وبالمثل كانت مناهج المدارس الثانوية عام ١٩٢٤ تتشابه مع مناهج ١٩١١ رغم أنها كانت تدرس مادة التاريخ في السنتين الأوليين من الدراسة[٤٠].

وقد كانت سياسة التعليم بشكل عام تحت سيطرتهم مما كان له آثار سلبية كثيرة، منها أن التعليم الإلزامي كان بطيئاً كل البطء بحيث أن عدد الذين جرى عليهم الإلزام في عام ١٩٣٨ ربع الأولاد والبنات الذين يقضي قانون الإلزام بتعليمهم...وكانت برامج ومناهج المدارس المصرية في نفس العام غير صالحة لتخريج غير الموظفين، كما خلت المناهج من المواد التي تنشر الثقافة وترفع المستوى العلمي لعدم وجود المدرس الصالح لتدريس هذه المواد[٤١]. قرأنا في المدرسة الثانوية قشور العلوم لأن التعليم في أوربا يمتد في الثانوي إلى ست أو سبع سنوات، بينما كان في مصر خمس سنوات ثم صار أربعاً فثلاثا، وقد حذفت من مناهج التعليم أجزاء كثيرة كانت تنير العقول وتعد للتعليم العالي، ولكن أفلت من هذه القشور رغم أنف المعلمين بعض مبادئ الحق والحرية في كتب المطالعة أو في دروس التاريخ أو في قصائد الشعراء[٤٢].

٤-فرض الطاعة والرهبة

كان التعليم في بداية عهد الاحتلال، تابعاً لوزارة الداخلية، كونه أداة لحفظ النظام كقوة البوليس تماماً، وتخريج الموظفين الطيعين للإدارة، بالإضافة إلى نظم الامتحانات التي كانت تزداد في صعوبتها وسهولتها حسب الحاجة إلى تخريج الموظفين وحسب رغبتهم في استبعاد بعض النابهين من استكمال تعليمهم.

---

[٤٠] شميدت، آرثر جولد، وآخرون(تحرير).رؤية جديدة لمصر، ص ٢٣٧.
[٤١] المرجع السابق، ص٢٠٦-٢٠٧.
[٤٢] جمعة، محمد لطفي. شاهد على العصر، مرجع سابق المرجع السابق، ص٨٠.

فالتعليم بكافة مراحله تحت الاحتلال، قد أتاح وسيلة لاستخدام المناهج الجديدة للنظام والانضباط لصياغة كل مصري فرد بحيث يكون رعية سياسية طائعة ومطيعة. ونتيجة لذلك فإن التعليم المنظم، صار ينظر إليه بوصفه العنصر المحوري لسياسة الدولة الحديثة، وهي سياسة لا تستند إلى مجرد الاستخدام المتقطع للقسر، بل إلى عملية تلقين وانضباط وتفتيش متصلة[٤٣].

واستخدمت في ذلك كل الأساليب من مباني ضخمة تبث الرهبة في قلوب الطلاب، ومراقبة الطلاب وبث الجواسيس بينهم، ومنع قراءة الجرائد أو عمل الجمعيات، أو الانضمام للأحزاب السياسية، أو الحديث في هموم الأمة. فكان معمار المدرسة، مثلاً، يترك أعمق الأثر في الطلبة يبث فيهم الرهبة، ويذكر الدكتور عبد الوهاب المسيري في رحلته الفكرية ذكرياته عن المدرسة فيقول "كان معمار مدرسة دمنهور الثانوية قد ترك أعمق الأثر في، وهو لا يختلف كثيراً عما يسمى "الطراز الكولونيالي". كانت واجهة المدرسة، عبارة عن حديقة يسير فيها المرء بضع خطوات، ثم يبدأ يصعد عدداً كبيراً من السلالم الرخامية (لعل عددها يبلغ الخمسين)، وفي القمة توجد عدة أعمدة ذات تيجان كورنثيه يتوجها فرنتون روماني. ولعل الهدف من هذا الطراز، هو إدخال الرهبة في قلب المصريين من قوة الإمبراطورية وهيبة الحضارة الغربية[٤٤].

ويقول محمد لطفي جمعة: "في السنة الأولى من القرن العشرين ختمت دراستي الابتدائية واتفقت آراء لأدخل المدرسة الخديوية الثانوية. ولا تسل عن الانفعالات الكثيرة التي جاشت بنفسي عندما وطئت قدماي لأول مرة فناء ذلك المعهد العلمي، فإن كل شيء فيه كان يؤثر في نفسي أثراً قوياً جميلاً[٤٥].

وقد قام أتباع دنلوب من المدرسين الإنجليز وأضرابهم من المصريين باضطهاد كل طالب أو تلميذ يظهر عاطفة أو ميلاً نحو الاجتماع أو تأليف القلوب أو النداء باسم الوطن، من خلال نظام فظيع من التجسس في المدارس وصار نجباء الطلاب يطردون ويطاردون ويحرمون من دخول الامتحانات العامة ليكونوا مثالاً لغيرهم وليكون في عاقبتهم موعظة وعبرة!. ويذلونهم ويعلموهم الصغار وهم في

---

[٤٣] ميتشل، تيموثي.استعمار مصر، مرجع سابق، ص٣٣.

[٤٤] المسيري، عبد الوهاب.رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، القاهرة:دار الشروق، ط٢، ٢٠٠٥م، ص٢١-٢٢.

[٤٥] جمعة، محمد لطفي. شاهد على العصر، مرجع سابق، ص٦٩.

ريعان الفتوة وفي سن الحماسة الحقة، فيطفئون جذوتها بالتهديد والوعيد والاحتقار، فقد وصفوهم في مكاتبهم بأنهم أمة نصف متحضرة، وداسوا كل عاطفة وطنية[٤٦]. وتم اضطهاد المشايخ المخلصين، وصار دنلوب هو الحاكم بأمره، ولم يكن وكيل الوزارة في ذلك العهد إلا رجلاً من القش، كما أن الوزير نفسه كان صنماً مصاباً بالصمم والبكم، اللهم إلا القليلون مثل سعد زغلول باشا[٤٧].

كذلك كل أستاذ مصري، كان لا يباح له أن يذكر عن مصر وتاريخها ومجدها شيئاً، ولا يباح له أن يقرأ جريدة أو يصرح لطالب بقراءة جريدة، وتاريخ مصر والإسلام نفسه كان يدرس باللغة الإنجليزية في بضع صفحات أو لها "إن مصر لم تحكم نفسها بنفسها أبداً"، وآخرها "وقد هزم الجيش المصري في التل الكبير وذبح الجنود المصريون في ليلة[٤٨].كما تحمل هؤلاء الطلبة المصريون إمارة المفتشين الأجانب، وشهدوا ارتجاف النظار والأساتذة عند حضورهم[٤٩].

٥-السلم التعليمي

حرص الإنجليز، على ضم الكتاتيب القديمة والمدارس الأولية إلى نظارة المعارف عام ١٨٨٩، وتوفير تعليم شعبي رخيص لا يتعدى القراءة والكتابة والحساب، وفي سعيهم لتقليص رقعة التعليم وتضييقها على المصريين، عمدوا إلى تغيير درجات السلم التعليمي مرات عديدة. فقد تغيرت مدة الدراسة بالمرحلة الثانوية أكثر من مرة، فكانت ٥ سنوات منذ بداية الاحتلال الإنجليزي، وفي عام ١٨٩٧ خفضت تلك المدة إلى ٤ سنوات، وفي عام ١٩٠٥ استمرت ٤ سنوات ولكن قسمت على قسمين مدة كل قسم سنتين، ينتهي القسم الأول بامتحان يحصل الناجحون فيه على "شهادة الأهلية"، والقسم الثاني تتشعب فيه الدراسة إلى شعبتين (أدبية وعلوم).

وفي عام ١٩٢٥ وضع مشروع لتعميم التعليم الأولي، فأنشئت المدارس الإلزامية، وحددت مدة الدراسة فيها بست سنوات، ثم أنقصت إلى ٥ سنوات من سن السابعة إلى سن الثانية عشرة، كما أنشئت مدارس الحقول التي تجمع بين المواد النظرية والعملية، ومدة الدراسة بها ٦ سنوات تبدأ من

---

[٤٦] المرجع السابق ، ص٧٧.
[٤٧] المرجع السابق، ص ٧٦
[٤٨] المرجع السابق، ص٧٧
[49] المرجع السابق، ص٦٣.

السابعة، وفي سنة ١٩٢٨ زادت مدة الدراسة إلى خمس سنوات تنقسم إلى مرحلتين: الأولى مدتها ٣ سنوات يحصل الناجحون في نهايتها على "شهادة الكفاءة"، والثانية مدتها سنتان يتخصص فيها الطالب في إحدى الشعبتين "العلمية أو الأدبية" ويحصل الناجحون في نهايتها على "شهادة البكالوريا".

وفي عام ١٩٣٣ صدر القانون رقم ٤٦ "قانون التعليم الإلزامي" والذي بمقتضاه تحولت جميع المدارس الأولية التابعة لوزارة المعارف إلى نظام المدارس الإلزامية، وتم تحديد سن الإلزام للبنين والبنات في سن السابعة حتى الثانية عشرة، وحددت مدة الدراسة بخمس سنوات دراسية فيما تقررت مجانية التعليم الابتدائي في عام ١٩٤٤.

في عام ١٩٣٥ استمرت مدة الدراسة ٥ سنوات ولكن تحول تقسيمها إلى مرحلتين: الأولى مدتها ٤ سنوات تنتهي بامتحان الثقافة العامة "القسم العام"، والثانية مدتها سنة دراسية واحدة "سنة التوجيه"، يحصل الطلاب في نهايتها على شهادة الدراسة الثانوية العامة "القسم الخاص"، وتتشعب فيها الدراسة إلى ثلاث شعب هي: العلوم، الآداب، الرياضيات، وتخضع لإشراف جامعي على امتحاناتها. وأصبحت مدة الدراسة بالمدارس الثانوية للبنات ٦ سنوات اعتباراً من سنة ١٩٣٧ وكانت مقسمة إلى مرحلتين: الأولى مدتها ٥ سنوات للثقافة العامة، والثانية مدتها سنة واحدة "مرحلة التوجيه".

في عام ١٩٥١ توحدت المناهج ومدة الدراسة بين مدارس البنين ومدارس البنات الثانوية لتكون ٥ سنوات وأعيد تقسيمها لتكون على ثلاث مراحل، الأولى مدتها سنتان يحصل الناجحون في نهايتها على شهادة الدراسة المتوسطة، والثانية مدتها سنتان ويحصل الناجحون في نهايتها على شهادة الثقافة العامة، والثالثة مدتها سنة وتنقسم فيها الدراسة إلى "علمي وأدبي"، ويحصل الناجحون في نهايتها على شهادة التوجيهية[٥٠].

---

٥٠ https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B9%D9%84%D9%8A%D9%85_%D9%81%D9%8A_%D9%85%D8%B5%D8%B1

٦-الإنفاق على التعليم

بدأ الاحتلال في انقاص ميزانيات التعليم، وعدم التدرج بها بما يتناسب مع أهمية التعليم أو مع الزيادة في ميزانية الدولة، وحتى ترك لورد كرومر مصر عام ١٩٠٦م، بلغت ميزانية التعليم ٣٧٤٠٠٠ جنيه، وكان يجب أن يصرف على الأقل ٢ مليون جنيه استرليني[٥١]. وألغيت المجانية، وزادت مصروفات المدارس الثانوية، واقتصر القبول بالمدارس على أبناء القادرين الذين يستطيعون دفع المصروفات، في حين أن التعليم في عهد محمد على وإسماعيل كان بالمجان داخلي في جميع المدارس مع توفير وجبة لكل تلميذ[٥٢].

أهمل البريطانيون التعليم وقتروا فيه عامدين، إذ أن ميزانية التعليم في عام ١٨٨٢ كانت٨٤.% ، وبعد مرر ٣٨ عاماً أي في عام ١٩٢٠، بلغت هذه النسبة ١.٧٧%..وقد كانت الأمية في مصر عام ١٨٨٢ ٩١.٧% وبلغت نسبتها ٩١.٣ في عام ١٩١٧[٥٣]. ولم يكن هناك عام ١٩١٣، سوى ٣٢ مدرسة ابتدائية، وست مدارس ثانوية بالقطر كله[٥٤]. فقد قلص الاحتلال التعليم، وحد منه وألغى المجانية وضرب عليه المصروفات، فلم يرده إلا من كان قادراً على نفقاته من الإقامة في القاهرة لأبناء الريف، وأداء المصروفات الدراسية المقررة، ثم أوقف البعوث إلى الخارج، وأصبح التعليم قاصراً على إعداد موظفي الدولة[٥٥].

٧- البعثات العلمية

قتر الاحتلال في إرسال البعثات إلى الخارج، ففي عام ١٨٨٨م، قلت المخصصات المالية للبعثات التعليمية تدريجياً، حتى كادت تتوقف تماما في السنوات العشر الأولى من الاحتلال، كما صدرت الأوامر بألا يرسل للخارج سنوياً سوى تلميذ واحد في العام على نفقة الدولة، وتحكم الاحتلال في المدرسة التي يرسل إليها المبعوثون في انجلترا[٥٦]، واتجهت البعثات إلى بريطانيا بعد أن كانت تتجه

---

[٥١] سلامة، جرجس، أثر الاحتلال البريطاني، مرجع سابق، ص١٠٥.
[٥٢] حسن، عبدالغني حسن.عبد الله فكري، مرجع سابق، ص٤٩-٥٢.
[٥٣] سلامة، جرجس، أثر الاحتلال البريطاني، مرجع سابق، ص٦-٧.
[٥٤] المرجع السابق ، ص٨.
[٥٥] النجار، حسين فوزي. الدكتور هيكل وتاريخ جيل، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٨٨م، ص٤٠.
[٥٦] سلامة، جرجس، أثر الاحتلال البريطاني، مرجع سابق، ص٧.

إلى فرنسا، وتم مراقبة الطلاب المبعوثين حتى لا يشتغلوا بسياسة بلادهم وتحريرها. وحتى بعد أن عادت البعثات تحت ضغط الحركة الوطنية، إلا أن أعداد المبعوثين قد قلت بما لا يتجاوز العشرة طلاب.

٨-التعليم الثانوي والمدارس العليا

لقد وضع الاحتلال خطته على أساس وضع نظام للتعليم يصعب من الوصول للتعليم الثانوي والعالي. فلكي يدخل التلميذ المدرسة الثانوية، لابد من الحصول على الشهادة الابتدائية، ولكي يدخل التعليم العالي لابد أن يحصل على الشهادة الثانوية. وجعل التوظف والترقي ممكناً بالشهادة الابتدائية، ثم أنشأ شهادة فوق الابتدائية كحاجز آخر لتحويل مجرى المتعلمين عن إكمال تعليمهم هي شهادة "الأهلية للوظائف الملكية الصغرى".

ثم أنشأ شهادة الكفاءة، ثم زاد في مدة الدراسة الثانوية قسم أول بعد سنتين من الدراسة، ثم جعلوا الشهادة الدراسة الثانوية، هي الشهادة المعتمدة للتوظف والترقي بدلاً من الابتدائية، وجعلوها الهدف الذي يصل إليه كل متعلم يريد أن يصل إلى وظيفة حكومية ويترقى فيها، وكل ذلك حتى يقف تعليم الغالبية من القلة التي تدرس في التعليم العام عند حد الثانوية العامة[٥٧].

كما أقفل الاحتلال، الكثير من المدارس، ففي عام ١٨٨٧م، ألغيت العديد من المدارس الثانوية والخاصة والعالية، وكثيراً من المدارس الابتدائية، مثل: مدرسة درب الجماميز، ومدرسة الترجمة، ومدرسة الهندسة، ومدرسة المعلمين. وفي عام ١٨٨٩م، ألغيت المدارس الثانوية في كل من: طنطا، والمنصورة، والزقازيق، وأسيوط، وبني سويف[٥٨].

فلم تكن المدارس الثانوية، في أوائل القرن العشرين، إلا أداة من أدوات الحكم البريطاني في مصر، غايتها تخريج طبقة من الأفندية ليشغلوا الوظائف الصغرى في دواوين الحكومة، وليعملوا في طاعة

---

[٥٧] سلامة، جرجس، أثر الاحتلال البريطاني، مرجع سابق، ص٢١٦-٢١٧.
[٥٨] المرجع السابق، ص٧.

وهدوء تحت إشراف السادة الإنجليز الذين يشغلون المناصب العليا الإدارية على مثال الحكم المدني الهندي[٥٩].

وقد ساعدهم على ذلك تقليل عدد المدارس الثانوية في البلاد، فلم تكن هناك في العقد الأول من القرن العشرين سوى ست مدارس عالية، أشهر ما يدرس بها علم الحقوق والهندسة، ومع ذلك فبرنامجها في الحقيقة برنامج المدارس الثانوية، أي فيه الكفاية لمجرد إخراج من يشغلون الوظائف الثانوية، والسبب في ذلك المرتبات الضئيلة التي ينقدها أهل الوظائف الصغرى تحول دون استخدام الأوروبيين في هذه الوظائف، ولذلك أصبح من الضروري بقاء المدارس العليا القديمة حتى يؤخذ العدد المطلوب للوظائف المذكورة من أبناء البلاد[٦٠].

٩-الثقافة واللغة العربية والدين والانتماء

كانت أغراض الاحتلال، ترمي إلى إضعاف اللغة العربية، وإحلال اللغة الإنجليزية محلها، وتغييب تاريخ البلاد من قلوب وعقول ناشئة الوطن حتى يسلس قيادهم وطاعتهم وخضوعهم للاحتلال أطول وقت ممكن. ومن أجل ذلك، ألغي استعمال اللغة العربية، كواسطة للتعليم في جميع مراحل التعليم وحلت محلها اللغة الإنجليزية. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، وإنما قللت حصص اللغة العربية في المدارس الابتدائية بشكل ملفت للأنظار[٦١]. كما أن تاريخ المصريين والعرب لم يكن داخلاً في برنامج المدارس الثانوية، بحجة أنه غير ضروري لامتحان ما يسمى الشهادة الثانوية، وهي الشهادة الوحيدة التي تفتح لحاملها باب الحياة الحكومية في الوظائف والتدريس. أما التعليم الابتدائي فيكفي أن يقال عنه أنه ليس إجبارياً ولا مجانياً ولا زائداً زيادة كبيرة عن القراءة والكتابة والحساب[٦٢].

وقد صار الدين مهمشاً، كما يقول محمد لطفي جمعة في مذكراته" لم يحاول الأساتذة تعليم الدين، كأنهم كانوا يتحاشون-تنفيذاً لبعض الأوامر- أن يعرضوا علينا بضاعتهم، وكان جلهم من متخرجي الأزهر ودار العلوم. لم أسمع-وأيم الحق- كلمة إيمان أو عقيدة من أحدهم...لم يقولوا ولم ينطقوا

---

[٥٩] جمعة، محمد لطفي. شاهد على العصر، مرجع سابق، ص٦٩-٧٧.
[٦٠] سلامة، جرجس، أثر الاحتلال البريطاني، مرجع سابق، ص٩٦-٩٧، نقلاً عن تيودور روثنستين. تاريخ المسألة المصرية.
[٦١] سلامة، جرجس، أثر الاحتلال البريطاني، مرجع سابق، ص٢٦٣.
[٦٢] روشتين، تيودور. تاريخ المسألة المصرية، مرجع سابق، ص٢٢٣.

طوال ثماني سنوات قضيتها في التعليم الابتدائي والثانوي كلمة في الوطن أو الدين أو الأخلاق أو التاريخ الصحيح، ولم يحاول أحدهم–عفا الله عنهم وطيب ثرى من مات منهم– أن يرفع الغشاوة عن أبصارنا ولو تلميحاً، كانوا يخافون شبح دنلوب والمفتشين الإنجليز والنظار والمنافقين والدساسين والجواسيس، فقنعوا بالمرتبات والثياب الجديدة والطرابيش الحمراء عن أداء الواجب نحو التلاميذ[٦٣].

ويستمر في شهادته "وبعد فترة الشهادة الابتدائية، التي قطعتها بسرعة، قبروا دروس التاريخ المصري القديم وبدأوا تاريخ الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية وأوروبا في القرون الوسطى والحروب الصليبية، وعلمونا العلوم كلها بالإنجليزية من: رياضيات، وكيميا، وطبيعة، إلى جغرافيا وتاريخ، ولم ينقص إلا أن يعلمونا العربية بالإنجليزية. وكان المعين على هذا البلاء والغدر دوجلاس دنلوب ويعقوب أرتين وجميع نظار المعارف أمثال فخري باشا. فكان من المستحيل على تلميذ أن ينبغ في اللغة العربية التي أعان رجالها على الحط من قدرها بالكتب الزرية الحقيرة التي ألفوها في النحو والصرف والبلاغة، فكان تعليمنا يؤهلنا للعبودية للأجانب، ويحصر أرزاق التلاميذ بين أيدي أساتذتهم من الإنجليز في دواوين الحكومة. والحق أننا في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى سنة ١٩٠٨ كنا مسرعين إلى الدمار العقلي بخطوات واسعة، ولم ينقذنا إلا الله بحادثة دنشواي[٦٤].

ويستمر محمد لطفي جمعة في شهادته قائلاً "كانت الوطنية غير معروفة عندنا بتاتاً مع وجود مصطفى كامل وجريدة اللواء، ولا الدين كذلك مع معاصرة الشيخ محمد عبده، ولا الاجتماع مع وجود قاسم أمين وسعد زغلول وأمثالهما، ولا ندري شيئاً عن الحياة العامة. لقد أحكم الملاعين غلق الأبواب على عقولنا وأخلاقنا وضيقوا الخناق علينا تضييقاً شنيعاً، واستعملوا "ضباطاً" من الطراز القديم ليحفظوا النظام، وهؤلاء كانوا في غاية الذل والخضوع لا ينطق أحدهم بكلمة[٦٥].

---

[٦٣] جمعة، محمد لطفي. شاهد على العصر، مرجع سابق، ص

[٦٤] جمعة، محمد لطفي. شاهد على العصر، مرجع سابق، ص٦٤.

[٦٥] المرجع السابق، ص٨٢.

ويقول محمد حسين هيكل" أتممت دراستي الثانوية، وليس لي في أمور السياسة ولا في أمور الاجتماع رأي مكون[٦٦]. ويعطينا محمود محمد شاكر شهادته فيقول "شهادتي أنا من موقعي بين أفراد جيلي الذي أنتمي إليه، وهو جيل المدارس المفرغ من كل أصول ثقافة أمته، وهو الجيل الذي تلقى صدمة التدهور الأولى،.. أحسست أني أنا والجيل الذي أنا منه، وهو جيل المدارس المصرية، قد تم تفريغنا تفريغا يكاد يكون كاملا من ماضينا كله، من علومه وآدابه وفنونه، وتم أيضا هتك العلائق بيننا وبينه، وصار ما كان في الماضي متكاملاً متماسكاً، مزقاً متفرقة مبعثرة تكاد تكون خالية عندنا من المعنى ومن الدلالة، ولأنه غير ممكن أن يظل الفارغ فارغا أبداً، فقد تم ملء هذا الفراغ بجديد من العلوم والآداب والفنون، لا تمت إلى هذا الماضي بسبب، وإننا لنستقبله استقبال الظامئ المحترق قطرات من الماء النمير المثلج[٦٧].

١٠-التعليم من أجل الوظيفة

بدمج مختلف أنحاء مصر في برنامج تعليمي واحد بالتدرج السابق الإشارة إليه، حقق الاستعمار أكثر من مجرد تعديل في أساليب التعليم والتربية. لقد دمر معنى العملية التعليمية ذاتها، وجرى تعميم الطموح للوظيفة، من خلال الحصول على الشهادة دون نظر لمحتوى التعليم أو غايته. وجعل من المدارس مسابك لإعداد آلات بشرية تفي بحاجات الدواوين[٦٨] .

فقد شجع الاحتلال، على ثنائية التعليم، من خلال نظامي الكتاتيب والمدارس الأميرية، لخلق تميز طبقي بين المواطنين، وعمق الشقة بين الصفين لإبعاد الشقة بينهما في الثقافة والميول والاتجاهات. ليجعل من إحداهما طبقة حاكمة، والسبل أمامها إلى الصدارة منفتحة، لتكون الطبقة التي تسانده ويختبئ وراءها لإرغام المواطنين على استساغة وضعهم، واستجداء السلطة الاستعمارية بدلاً من تحديها من خلال الوظيفة مهما كانت درجة كفاءتهم، فقد غايتهم وضع كل شيء في أيدي غير الأكفاء حتى تأتي النتائج معكوسة، وقد أثمرت هذه الغاية فكان معظم الذين تخرجوا في ذلك العهد

---

[٦٦] هيكل، محمد حسين. مذكرات محمد حسين هيكل، مرجع سابق، ص٢٥.
[٦٧] شاكر، محمود محمد. رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، مرجع سابق، ص٢٢٧-٢٢٨.
[٦٨] سلامة، جرجس، أثر الاحتلال البريطاني، مرجع سابق ، ص (ط) من مقدمة محمد يوسف وزير التعليم للكتاب.

جهالاً ومعدومي الكفاية والثقافة[٦٩].ومن الثانية، طبقة محكومة، تلتمس رزقها في الفلاحة أو الصناعة الخفيفة أو حقير الأعمال، ولا سبيل أمامها للوظيفة الحكومية وبالتالي المشاركة في حكم البلاد، فتعيش في تعاستها وفقرها المستمرين[٧٠].

ويستمر قائلاً" لقد جعل كرومر وشيعته برامج التعليم مثالاً يحتذى للتوافه والسفاسف، وقيدوا التعليم بالشهادات الحكومية التي لا تبيح سواها دخول الوظائف، وحاربوا التعليم الحر والمهن الحرة ليقتلوا الاستقلال في العمل ويخنقوا النبوغ في مهده. وهكذا ضمن الإنجليز الجهل للتلاميذ، وحددوا المستقبل للطائعين منهم وقفلوا بابه في وجود المستقلين والنوابغ[٧١].

١١-صنائع الاستعمار في مجال التعليم

نجح دانلوب، في تكوين بطانة من الإنجليز والمصريين، يسبحون بحمده وينفذون جميع أوامره وينتهون عن سائر نواهيه، ويسيرون وزارة المعارف ومدارسها بحسب إشارته، وصار هو الحاكم بأمره[٧٢]. يقول محمد لطفي جمعة، عن بعض صنائع الاستعمار نتاج النظام التعليمي" وبالجملة كانت فترة التعليم الثانوي بالنسبة لي ولأمثالي في أوائل القرن العشرين محنة. أما الآخرون، وكان معظمهم من الريف، فكانوا يقبلون على التعليم المدرسي بنية أن يأخذوا شهادة ليتوظفوا بها، وقد نجح كثير منهم وصاروا في الحكومة باشوات وبكوات وأفندية، وهم في غاية الغفلة من الناحية السياسية والقومية والثقافية، وتراهم الآن كما كانوا من قبل يدافعون عن الحكم القائم الذي صاروا بفضل كرومر وجورست وكتشنر وماكسويل من عباده، ولم يكن ينتظر غير ذلك[٧٣].

يقول محمد لطفي جمعة "ولما فشا نظام المستشارين الإنجليز، قسموا بينهم رجال المستقبل: فقالوا هؤلاء الباشوات المصريين صنيعة فلان المستشار وهؤلاء صنيعة فلان، وتبارى كل فريق في تسييد (من السيادة) سياسة صاحبه ومولاه، وبعبارة أخرى خلق في مصر نظام جديد من الولاء كالولاء العربي

---

[٦٩] جمعة، محمد لطفي. شاهد على العصر، مرجع سابق، ص ٦٩-٧٧.
[٧٠] سلامة، جرجس، أثر الاحتلال البريطاني، مرجع سابق، ص
[٧١] جمعة، محمد لطفي. شاهد على العصر، مرجع سابق، ص٧٨-٧٩
[٧٢] جمعة، محمد لطفي. شاهد على العصر، مرجع سابق، ص٦٩-٧٧.
[٧٣] المرجع السابق، ص٨١.

القديم بين الأمراء والتابعين. وقد جعل دوجلاس دنلوب، لنفسه جيشاً جراراً من هؤلاء الصنائع في نظارة المعارف، وبثه في حنايا المدارس والمعاهد والدواوين، وبعث منهم جواسيس وأرصاداً، وألزمهم بكتابة التقارير إليه في الليل والنهار. وهذا هو الوسط، الذي تربى فيه رجال المستقبل، وأمل الجيل، وذخيرة مصر، ورجاء الأمة وذخر الوطن[٧٤]

وقد احتفظ معظم المسئولين التعليميين في عصر الملكية الدستورية بعد الاستقلال عام ١٩٢٢م، بالأسلوب الإرشادي في السياسات التعليمية التي وضعها المحتل البريطاني بشأن درجات السلم التعليمي[٧٥].

خاتمة

لقد رأى الإنجليز فرصتهم الذهبية في ثورة عرابي وخنوع الخديوي وثقل الدين الخارجي، فكانت ضربتهم واحتلال مصر عسكرياً، وتلوه باحتلال العقول وتبوير الأفهام عبر التعليم، الذي أعطاهم الفرصة لإيجاد هوة سحيقة بين أبناء المجتمع من خلال احلال ثقافة أجنبية محل الثقافة الأصلية العربية الإسلامية، وخلق جيل من الرجال تمكنوا من اللغة والآداب الغربية، ولكن القيم لديهم كانت مهتزة والفكر عندهم سقيم، حتى يضمنوا لاحتلالهم الاستمرار والثبات، حتى استتب لهم الأمر في مصر، وقضوا في أرض الكنانة(٧٣) سنة.

فلم يكن القبول بالقسر وحده، عبر القوة الغاشمة للاحتلال، هو الأداة الوحيدة لاستمرار الاحتلال الإنجليزي لمصر، لكن كان التعليم أداة القسر الناعمة الهادئة، التي أسهمت بقوة في نجاح مشروع الاستعمار. فالإمبريالية القديمة، وعت تماماً دور العلم والتعليم خاصة، في بقاء ونماء الاستعمار وترسيخ جذوره في التربة المصرية.

ولهذا، فإن الإحاطة بالظاهرة الاستعمارية في الميادين النظرية والتطبيقية، والاهتمام بالتعليم باعتباره أرض المعركة الحقيقية التي ينبغي النضال فيها إن أرادت أمتنا استقلالاً حقيقياً، هما مقدمات

---

[٧٤] المرجع السابق، ٧٩

[٧٥] شميدت، آرثر جولد، وآخرون(تحرير).رؤية جديدة لمصر، ص٢٤٣.

حصول مجتمعاتنا العربية المسلمة على نظام للاجتماع والحكم على درجة من القوة، بالقدر الذي لا يسمح بتكرار الأحوال التي أدت إلى وقوع الاحتلال البريطاني. فالتعليم الفعال، يلعب دورا أساسياً في مستقبلنا أمتنا، وما خروج مصر من التصنيف العالمي للتعليم مؤخراً، وفي علاقة ذلك بتنامي تبعيتها للاستعمار والإمبريالية في ثوبها الجديد، ما هو إلا مؤشر على ما قد تذهب إليه تلك الأمة في الغد القريب.

وأخيراً، كما سعى الأولون من المصلحين في بداية هذا القرن، عبر التعليم لتنوير الأمة وتخليصها من أوزار وقيود الاحتلال، على الذين يعملون ويناضلون داخل أمتنا، أن يكون التعليم والثقافة أول وأهم ثغر من الثغور التي يقفون عليها مرابطين، حتى لا تقع أمتنا قصعة شهية لإمبريالي اليوم المتنمرون الجاهزون لالتهام أمتنا اليوم أو غداً على الأكثر.

إن هزيمة الإمبريالية الجديدة تحتاج إلى سلاح التعليم

المراجع

١- الجندي، أنور.عبد العزيز جاويش، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، ط١، ١٩٦٥م.

٢- السيد، أحمد لطفي. صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر، القاهرة: لهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠٠٨م.

٣- المسيري، عبد الوهاب.رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، القاهرة: دار الشروق، ط٢، ٢٠٠٥م.

٤- النجار، حسين فوزي. الدكتور هيكل وتاريخ جيل، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٨٨م.

٥-أوين، روجر.اللورد كرومر، ترجمة رءوف عباس، القاهرة:المجلس الأعلى للثقافة، ط١،٢٠٠٥م.

٦- جمعة، محمد لطفي. شاهد على العصر، القاهرة:الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠٠٠م.

٧- حسن، عبدالغني حسن.عبد الله فكري، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، سلسلة أعلام العرب، ط١، ١٩٦٥م.

٨- روثنستين، تيودور. تاريخ المسألة المصرية، ترجمة عبد الحميد العبادي ومحمد بدران، بيروت: دار الوحدة، ط٢. ١٩٩٤م

٩- سلامة، جرجس. أثر الاحتلال البريطاني في التعليم المصري، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، م١٩٦٦م.

١٠- شاكر، محمود محمد.رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، القاهرة:دار الهلال، دون رقم طبعة، ٢٠١٢م.

١١- شميدت، آرثر جولد، وآخرون(تحرير).رؤية جديدة لمصر، ترجمة عايدة الباجوري، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٣م.

١٢- عبد الباقي، عبير حسن.الوجود البريطاني في الإدارة المصرية(١٩٢٢-١٩٥٦)، القاهر: المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٩م.

١٣- عبد الكريم، أحمد عزت. دراسات في تاريخ العرب الحديث، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ط١، ٢٠١٦م،

١٤- عبد الملك، أنور.نهضة مصر، ترجمة حمادة إبراهيم ووجيه عبد المسيح، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ط١، ٢٠١١م.

١٥- ميتشل، تيموثي.استعمار مصر، ترجمة بشير السباعي، وأحمد حسان، القاهرة:مدارات للأبحاث، ط٣، ٢٠١٤م.

١٦- هيكل، محمد حسين. مذكرات محمد حسين هيكل، ، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط٢، ٢٠١٠م.